حوارات
في معرفة البلاغة
عندما تكون المعرفةُ مسؤوليّة، والكتابةُ والتفكيرُ اجتهاداً، حتماً سيكون السّؤالُ عن ماهية ووظائف الانشغال في تلك المعرفة والدّخول ضمن إطارها، فالبلاغة - حسب ما يرى هذا الحوار- ليست منطقةً بحث نعتاش على القوالب الجاهزة والتمارين المتداولة، وليست مسمياتٍ نُفعّلُها هويتها متى ما شئنا ونُعيدُها متى ما شئنا، بل إنّ البلاغة مسؤوليّةٌ، يتحمّلها المشتغلون بها ويعيشون همومها؛ ولذا فقد حان الأوانُ أن نفكّر في السّؤال لأنّه بداية المعرفة وبدأنا حواراً جماعياً أو حواراً بين جيلين ليس بالضرورة أن يكون بين متطابقين، ولا تُهيمنُ فيه رؤيةٌ على أخرى مدّعية أنها الحقُّ والأخرى على الخطأ، بل نذهب للتّفكير في البلاغة من أجل تحفيز مداخل قراءة البلاغة وتحديد سمات عملها، فاليومَ يشهد الدرس البلاغي قوة ونشاطاً وسيادة في الثقافة العربية وفي مواجهة خطابات متنوعة تمتلك صفاتٍ تجعلها مؤهلةً للقراءة البلاغية، لكنّ في الوقت ذاته نشخّصُ غيابَ الدّقة في تحديد مجالاتِ البلاغة وواجباتها وتداخل وظائفها تبعاً لغياب تحديد سماتِ البلاغة ومفاهيمها ورجالاتها. ليس الحوار مناظرةً نرجو من ورائها الغلبة، بل الحوارُ معرفةٌ مضافةٌ لا تبحث عن حُكمٍ من خارج اللُّعبة البلاغيّة، أو هو تأثيثٌ معرفيٌّ آخر يُشعرنا بوجودِ عقولٍ واتجاهاتٍ متعدّدةٍ لها رؤى قد تكون متباينة، لكنّها -جميعاً- تنتصرُ إلى الاكتمال، ولذا وُلِدَ هذا الحوارُ في رحم البلاغة والعناية بها.
صلاح حاوي
دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع
كنوز المعرفة
darkonoz.almarefa
darkonoz
darkonoz
محمد الولي
سعيد الفاتمي
عماد عبد اللطيف
صلاح حاوي
في معرفة البلاغة
حوارات
في معرفة البلاغة
محمد الولي
سعيد الفاتمي
عماد عبد اللطيف
صلاح حاوي
دار كنوز المعرفة
عَالم يحيا بالقراءة
darkonoz
darkonoz.almarefa
كنوز المعرفة
darkonoz
darkonoz
darkonoz.almarefa

حوار المستقبل واستكشافات أخرى مع عماد عبد اللطيف

صلاح حاوي

أنهيتُ حواري مع الاستاذ سعيد الغانمي عن مستقبل البلاغة وحضورها في حياتنا اليومية. وانتهى الى القول «في ضوء ظروفنا الثَّقافيَّة الراهنة، لا يبدو أنَّ مستقبل البلاغة سيكون أفضلَ من ماضيها» عزيزي د عماد أنت منشغل منذ أعوام في مشروعك البلاغي ربط البلاغة بالحياة اليومية، فهل يمكن أن نحدّد ملامح مستقبل البلاغة على وفق هذه المعطيات؟.

عماد عبد اللطيف

مستقبل المعارف عصيٌّ على التنبؤ بدقّةٍ تامّةٍ. فهناك دوماً احتمال إنجاز طفرات معرفيّةٍ بفضل أعمال فرديّةٍ شديدة الإبداعية تقطعُ الصّلة مع المعرفة الرّاهنة، وتؤسّس تصوّراتٍ مغايرةً للعلم. ومع ذلك، فإن التّنبؤ بما يمكن أن يكون عليه مستقبلُ العلم ما يزال ممكناً، مع التّحرز من صياغته بأي مستوى من مستويات اليقين. فإذا نحينا احتمال حدوث طفرة معرفيّة، فإن مستقبل العلم هو إلى حدٍّ كبيرٍ هو ما ننجزه اليوم. يعني ذلك أنّ شكل مستقبل العلم ـ باستبعاد الطّفرات ـ تُحددُه ملامحُ الممارسات العلمية الرّاهنة، ومن ثمَّ يمكن توقّع ما ستؤول إليه.

إذا استبعدنا الطّفرات العلمية الممكنة في علم البلاغة، فإنّني أتوقّع أن تتّسم بلاغة المستقبل في السّياق العربي بالملامح الآتية:

١ـ الاهتمام المتزايد ببلاغة خطابات الحياة اليومية:

منذ عام **٢٠٠٥**، دعوتُ إلى ضرورة تحويل مركز اهتمام البلاغة العربية من الخطابات العليا والمتعالية إلى خطابات الحياة اليومية، وحاججت، على سبيل المثال، بأن دراسة إعلان كوكاكولا بلاغيًا، قد لا يقل أهمية، إن لم يزد كثيرًا، عن دراسة ديوان المتنبي بلاغيًا. وأظن أن السنوات المقبلة سوف تشهد اتساع العمل على خطابات الحياة اليومية، وفي الحقيقة، فإنه أثناء كتابة هذه السطور، فبراير **٢٠٢٠**، أطلع على دعوة لمؤتمر حول بلاغة خطابات الحياة اليومية، في إشارة إلى تعزز البحث في هذه المدونة الهائلة.

٢ـ اكتساب بُعد أخلاقي للبحث البلاغي:

منذ أعمال أفلاطون في القرن الخامس قبل الميلاد، اتُهمت الممارسات البلاغية بافتقاد قيم أخلاقية؛ مثل الصدق والنزاهة، بسبب الميل إلى تبني ممارسات تلاعبية مخادعة. وظل التحدي الأخلاقي للبلاغة قائمًا على مدار القرون المتواصلة. وقد كان هذا التحدي الأخلاقي وراء الدعوة إلى بلاغة تُعلي من قيم إنسانية مهمة مثل العدل والنزاهة والصدق، وأظن أن الوعي بأهمية هذه القيم الأخلاقية للمعرفة البلاغية ستكون عنصرًا مشتركًا في الكثير من ممارسات علم البلاغة.

٣ـ تعزيز البحث في بلاغة الجمهور، وتمكين الجماهير:

تُشكل بلاغة الجمهور في الوقت الراهن توجهًا مهمًا من توجهات البلاغة العربية المعاصرة، وأظن أن البحث في استجابات الجمهور من منظور بلاغي سوف يتنامى ويتعزز على مدار السنوات المقبلة. وتشكل الغاية النبيلة التي

تنطوي عليها الممارسات المعرفية لبلاغة الجمهور حافزًا إضافيًا على توسيع دائرة الاشتغال بها؛ لا سيما ما يتعلق بتمكين أفراد الجمهور العاديين من إنتاج استجابات بليغة تقاوم الخطابات السلطوية التي يتعرضون لها في حياتهم اليومية.

٤ـ ترسخ هوية للبحث البلاغي بوصفه أداة للتحرر من الاستبداد والعنصرية والقهر وغيرها من أشكال إساءة استعمال السلطة:

تعيش المجتمعات العربية في ظل أشكال متنوعة من الاستبداد والتسلط والقهر في شتى مناحي الحياة. وفي حين كانت البلاغة التقليدية أداة من أدوات دعم خطابات الاستبداد لقرون طويلة، فإنني أظن أن بلاغة المستقبل ستتوجه إلى إحداث قطيعة مع هذه الممارسات، وتأسيس هوية مغايرة للبحث البلاغي، يُدرَك فيها بوصفه أداة لتحرر الشعوب من ربقة أشكال القهر والاستبداد والتمييز الشائعة في الحياة العربية المعاصرة.

٥ـ ترسخ هوية البحث البلاغية بوصفه معرفة بينية:

تميل العلوم الإنسانية الراهنة إلى تعزيز الصلات التي تربطها بغيرها من العلوم، وتَبَني نموذج بيني للمعرفة، يُدرك الحدود بين العلوم بوصفها تخومًا، ونقاط تقاطع والتقاء. وأتوقع أن يُعزز علم البلاغة علاقاته المعرفية مع العلوم الأخرى خلال السنوات المقبلة. وأظن أن مساحات التقاطع بين البلاغة وغيرها من العلوم سوف تتجاوز العلوم الإنسانية التقليدية لتشمل علومًا طبيعية وبحتة أخرى. وأتوقع أن يكون هناك اهتمام متزايد خلال الأعوام المقبلة بمساحات التقاطع بين البلاغة وعلوم مثل الفيزياء والرياضيات والاقتصاد والكيمياء وغيرها.

٦ـ تحول الممارسات العلمية للبلاغة من العمل الفردي إلى العمل الجماعي:

ظل البحث في البلاغة العربية عملا فرديًا بامتياز. فالأعمال العلمية المنشورة في البلاغة العربية منذ تدشينها هي أعمال فردية التأليف في مجملها، لا نستثني من ذلك المشاريع البلاغية التي تراكمت فيها جهود عدد كبير من الباحثين على مدار فترات زمنية طويلة، مثل مشروع السكاكي أو أمين الخولي. فقد ظلت هذه الأعمال تدور حول إسهام فردي مركزي، تطوره وتضيف إليه أعمال فردية تالية. وأتوقع أن تشهد السنوات المقبلة تحولا باتجاه التأليف المشترك الجماعي، بفضل الحاجة إلى تخصصات متنوعة لمقاربة الأبعاد المتباينة للظاهرة البلاغية المعاصرة. وصعوبة امتلاك باحث واحد لمعرفة متعمقة في عدد كبير من الحقول المعرفية.

صلاح حاوي

تعدّدتْ مراحل تشكلّ الفكر البلاغيّ العربيّ، فهل تظنُّ أن هذه المراحل تشكّل قطيعات معرفية أم اتصالاً معرفيًا واحدًا، بالأحرى هل تُعدُّ مساهمات الجاحظ وابن المعتز وعبد القاهر والزمخشري والسكاكي تصوراتٍ منسجمة متراكمة في إطار تصور عام واحد أم أنها تؤسّس تصوراتٍ متباينةً بواسطة قطيعة معرفية مع سابقها؟

عماد عبد اللطيف

هذا سؤالٌ تصعب الإجابة عنه؛ إذْ يجب البدء بذكر أن مفهوم القطيعة المعرفيّة صُكَّ حديثاً لوصف الثّورات العلميّة التي يُنجزها بعض الباحثين في

مجالات تخصصهم، ويترتب عليها إحداث قطيعة شاملة كلّية مع المعارف أو المنهجيّات أو التّصوّرات العلمية السابقة، وتأسيس نموذج إرشاديٍّ جديد مغاير. ولعل هذا التّصوّر للثّورات العلميّة أكثر وضوحاً في العلوم الطبيعيّة، لا سيّما الفيزياء والكيمياء على سبيل المثال، فإن الانتقال من تصوّر أن الأرض مركز الكون إلى تصوّر أنها مجرد كوكب صغيرٍ، في مجموعة شمسية متوسطة الحجم، يوجد ملايين مثلها في الكون غيَّر جذرياً علمَ الفيزياء الفلكية، فقد سقط نموذجٌ إرشاديٌّ، وظهر نموذجٌ آخر مغايرٌ لشكل الكون، وعلاقاته، وطريقة النّظر إليه، ودراسته.

في حالة التّراث البلاغي يصعب القول إنّ هناك قطيعة معرفية بين الأعمال التي أشرتَ إليها في سؤالك. هناك بالأحرى أشكال وصور من التّراكم المعرفيّ، الجليّ، أو الخفيّ؛ فالجاحظ المؤسّس يطرح تصّوراً للنّظم، يستندُ إليه عبد القاهر في دلائله وأسراره، في صياغة نظريّة شاملة للكلام البليغ، يستند، بدوره، إليها الزمخشري في كشافه لفهم بلاغة النّص القرآنيّ، ثم يستخلص السكاكي المبادئ العامة لهذه الممارسات البلاغيّة ويقدمها في مفتاحه. وباستثناءات محدودة، مثل منهاج البلغاء، يصعب القول بوجود قطيعة معرفيّة في النّظريات المفسّرة لبلاغة الكلام. ولعلّ محوريّة النّص القرآنيّ في البحث البلاغي العربيّ كانت سببًا في تبني مبدأ التراكم المعرفي لا القطيعة، منذ دشن أبو عبيدة بذرة التأليف البلاغي بكتابه مجاز القرآن (٢٠٧). أما دراسات الخطابة في تيارها الأرسطي، فلم تكن مؤثرة على نحو جذري في تيار الدرس البلاغي العربيّ، واستُوعبت في إطار النموذج الإرشادي السائد فيها، المرتبط تحديدًا بنظرية النّظم.

على الرغم من ذلك يمكننا أن نضع أيدينًا على بعض التحوّلات الجذرية التي لا تشكّل قطيعةً معرفيّةً، مثل التّحوّل من تفسير بلاغة النّصوص بواسطة قياسها إلى نماذج مثالية، حظيت بإجماع المختصين على بلاغتها؛ أي بواسطة ما يُمكن وصفه بأنه (أعراف بلاغيّة مستقرة غير مكتوبة ولا مبرهن على صحتها). وهو ما جرى في مرحلة النشأة في كتب معاني القرآن ومجازه، وشروح الشعر، فقد كانت البرهنة على بلاغة أسلوب أو ظاهرة ما هو عقد صلة مشابهة بين ورودها في النّص المدروس ووردها في متن آخر مشهود له بالبلاغة. وفي هذا السّياق استُعمل الشعرُ الجاهليُّ والقرآنُ الكريمُ بوصفهما نصوصاً متعاضدة. فتُفسَّر بلاغة أسلوب مثل تشبيه مجهول بمجهول في القرآن الكريم (وطلعها كأنه رؤوس الشياطين) في كتب معاني القرآن ومجازه في أواخر القرن الثاني والقرن الثالث بأنه يجري على طريقة البلغاء العرب، ويُستشهد بقول عنترة الشاعر الجاهلي (طلعها كأسنان أغوال). وعلى النحو نفسه، تُفسَّر بلاغة الأسلوب نفسه في أشعار العرب بأن استعماله يجري على طريقة البلغاء العرب، ويُستشهد بحضور الأسلوب في القرآن الكريم. وقد أطلقتُ على هذه الآلية (التعليل بالمشابهة)، وهي تُشكلّ مرحلة أولية من مراحل تطور تفسير الأساليب البلاغيّة، هيمنت على الدرس البلاغي في القرنين الثاني والثالث الهجريين.

أعقبت مرحلة التّعليل بالمشابهة مرحلة أخرى جرى فيها تفسير الأساليب البلاغيّة في النّصوص البليغة بواسطة فحص ما تنجزه هذه الأساليب من وظائف في المواضع التي ترد فيها. ومعظم التّراث البلاغيّ العربيّ التحليل يندرج ضمن هذه المرحلة. وهي في تقديري المرحلة الأكثر أهمية وأصالة وغزارة في التّراث البلاغيّ، والأقل حظوة بالبحث في الآن نفسه. يمكن أن

أعطي مثالا واحدًا لثراء هذه المرحلة هو أعمال فيلسوف العربيّة ابن جني التّحليلية للنّصوص البليغة كما تقدّمها كتبٌ مثل الفِسر والمحتسب وغيرهما. في هذه الأعمال يقدم ابن جني دراسات تحليلية لنصوص بليغة مثل ديوان المتنبي والقراءات القرآنيّة الشاذة، ويتوقف أمام الأساليب البلاغيّة في المتن المدروس، ويستكشف «سر» بلاغتها في كلّ موضع ترد فيه، بواسطة فحص أثرها في إنتاج المعنى، وإنجاز أغراض المتكلّم، ومطابقة مقتضيات المقام، والأثر في المتلقي. وهو، من ثمَّ، يمثل قطيعة مع آلية دراسة بلاغة أسلوب ما بواسطة التعليل بإثبات المشابهة إلى التعليل بفحص الوظائف البلاغيّة السّياقية للأسلوب. ويُعدُّ القرنان الرابع والخامس ذروة هذه المرحلة، وكانت الأساس الذي قامت عليه المرحلة الثالثة المتمثلة في وضع قواعد للأساليب البلاغيّة، وتفسيرها بواسطة ربطها بوظائف بلاغيّة عامة.

تجلت هذه المرحلة في كتب البلاغة العامة بشكلّ أساسي، منذ ظهرت الأعمال المبوِّبة للأساليب البلاغيّة، رابطة بين كلّ أسلوب ووظيفة بلاغيّة بعينها أو حزمة منها. ولعل كتب مثل سر الصناعتين، والعمدة، والمثل السائر، والمفتاح، وإيضاحه، وما نحا نحوها تُمثل هذه الطريقة على نحو جلي. وقد حظيت هذه الأعمال، وإسهاماتها، بالاهتمام الأكبر من باحثي البلاغة.

تبنت المراحل الثلاث السابقة طرقًا خاصة في إنشاء النّص البلاغي تتسم بالخصوص والتمايز. وقد حاولتُ من قبل فهم التحوّلات الجذرية التي خضعت لها آلية التأليف البلاغي، وارتباطها بتطور الوعي بوظائف الأساليب البلاغيّة. وربما تشكلّ هذه المراحل شكلًا من أشكال القطيعة في طرق التأليف.

صلاح حاوي

مرحلة الشّروح والتّلخيص لمفتاح العلوم لها صورتان متناقضتان في تصوّراتنا، فالأولى هي صورة الانتعاش وتسمية المرحلة بأنها شكّلت ثقافةً لها خصوصيتها تدلّ على الانتعاش في التّفكير البلاغيّ العربيّ عبر تطوير الفكرة البلاغيّة وتعدّد شرحها، والثّانية الرّكود وهي سمةٌ صارت تمثّل تهمةً متواصلةً لهذه المرحلة فهي مرحلةٌ من التّأليف عقّدت الدّرس البلاغيّ، كيف نرى مستقبل البلاغة إذا ما بُني على تراكمات مرحلة الشّرح والتّلخيص؟

عماد عبد اللطيف

هذا صحيح، فهناك بالفعل تقديرات متباينة لمدرسة السكاكي، وإسهاماتها. وهذا أمرٌ طبيعيٌّ، فالصّورة التي نكونها لمنجز بلاغي ما محكومةٌ إلى حدٍّ كبيرٍ بتصوراتنا الخاصة لما يجب لعلم البلاغة أن يكون عليه. من هذه الزّاوية فإن من ينظرون إلى علم البلاغة بوصفه فنًا يشحذ مهارات الفرد في تذوق الكلام البليغ، ربما يُنفره هذا النزوع التنظيري، والتصنيفي الصارم المنهك. وعلى خلاف ذلك، فإن من يدركون علم البلاغة بوصفه علمًا منضبطًا، سوف يحتفون بإسهام مدرسة السكاكي التي تُقدم صياغة شاملة متماسكة وعميقة للبلاغة العربيّة خصوصًا، ولما أسماه السكاكي علم الأدب عمومًا.

هذا التباين في تقدير مدرسة السكاكي أراه مفيدًا للغاية. فالتنوع في المرجعيات والتّصوّرات البلاغيّة يثري البحث البلاغي بكلّ تأكيد. المهم أن يكون مبنيّاً على معرفة مدّققة، ومحكوم بعوامل علمية بالأساس، ولا يتحوّل إلى موقف إيديولوجيٍّ أعمى. وأظنُّ أنّ نقطة الانطلاق الأولى للوصول إلى

تقديرات معقولة للتّراث البلاغيّ هي التّعامل معه بوصفه «تراثًا» بلاغيًا، ولا يمكن تحقيق هذا دون أن يكون الحاضر ومعطياته ومتطلباته وإكراهاته هو نقطة انطلاقنا في فحص الماضي، وليس العكس. إن قياس الحاضر على الماضي سلوك خطر، كما أن قياس الماضي على الحاضر فعل غير عقلاني. لكن المقارنة بينهما، وفهم الروابط بينهما، وتوظيفهما معًا في خدمة المستقبل هو ما يجب أن يكون. وأتوقع أن تشهد السنوات الماضية انفتاح دارسي البلاغة على تصورات أوسع للبلاغة، تتجاوز اختزالها في مدرسة السكاكي فقط.

صلاح حاوي

ثمّة سعي جادٌّ ودؤوب لربط البلاغة بتحليل الخطاب، هل تعتقد أنه يهدف إلى التخلص من العلاقة الرتيبة بين البلاغة والنّقد الأدبي، لاسيّما أنّ ذاكرة البلاغة عزّزت من وجود هذه العلاقة وجعلتْنا في مواجهة الذّاكرة النّقديّة ـ الشّعريّة؟

عماد عبد اللطيف

العلاقة بين البلاغة والنّقد الأدبي شديدة التعقيد والتداخل، سواء قديماً أو حديثاً. فكثيرٌ من كتب البلاغة العامة مثل الصّناعتين والعمدة والدّلائل والأسرار مزدوجة التصنيف. فهي ترد بوصفها إسهامات مهمة في علمي النّقد والبلاغة معًا. أمّا الكتب التي تبدو وثيقة الصلة بالنّقد مثل نقد الشعر، والموازنة، والوساطة وغيرها، فهي تشكّل في الآن نفسه محطاتٍ مهمةً في تطوّر البلاغة العربيّة. وعلى الرُّغم من وجاهة التّمييز بين البحث في هذين الحقلين المعرفيين في التّراث العربيّ فإن التّداخل بينهما جليٌّ إلى حدٍّ الإرباك في كثير من الأحيان. هذا التّداخل ربّما كان وراء التّقسيم المعتمد في

الأكاديميات العربيّة للفروع المعرفيّة لعلوم العربيّة، وهو تقسيمٌ يجمع البلاغة والنّقد في تخصّص فرعيٍّ واحد، مقارنة بتخصصات فرعية أخرى مثل النحو والصرف، وعلوم اللغة، والأدب القديم والأدب الحديث وغيرها.

هذه التواشج بين البلاغة والنّقد في التّراث العربيّ تغيّرَ على نحو جذريٍّ منذ منتصف القرن العشرين، نتيجة الافتراق التدريجي عن النّقد العربيّ القديم، والارتماء التدريجي في أحضان النّقد الغربي إلى حد الذوبان. بالطبع كان لهذا الافتراق محفزات قوية مثل ظهور أنواع أدبية جديد مثل المسرحية، والرواية، والقصص القصيرة... إلخ. علاوة على القطيعة مع الجماليات التقليدية للأنواع الأدبية القديمة، مثل القطيعة مع الشعر العمودي، والرسائل الديوانية التقليدية، والخطابة القديمة، وغيرها من الأنواع التي تأسس النّقد الأدبي لأجل دراستها.

ومع ذلك، فإنني لا أظنُّ أن حرص بعض البلاغيين على تعزيز الصّلة بين البلاغة وتحليل الخطاب مرتبطٌ بالعلاقات المتغيّرة بين البلاغة والنّقد الأدبيّ. فتحليل الخطاب حقلٌ معرفيٌّ شاسع، يتقاطع مع النّقد الأدبي في منطقة محدودة مقارنة بتقاطعاته مع حقول معرفية أخرى مثل اللسانيات والبلاغة وغيرها. وأظنُّ أن ربط البلاغة بتحليل الخطاب يجد تفسيره في مساحات التقاطع الشاسعة بينهما، التي يرى البعض أنها تصل إلى حد الاندماج. وهو ما يتبناه بعض محللي الخطاب ممن ينظرون إلى البلاغة بوصفها شكلًا من أشكال تحليل الخطاب، أو من ينظرون إلى البلاغة بوصفها مستوى من مستويات تحليل الخطاب هو التحليل البلاغي للخطاب يُعنى بوجوه المجاز، وأساليب المحاججة والتفنيد، ووسائل التأثير، وغيرها.

صلاح حاوي

نحتاج إلى المغامرة في قلب البلاغة العربيّة عبر إخراجها من الحدود الضيقة للجملة إلى رحابة الخطاب، لكنّ هذه المحاولة قد تهدّد صورة علم البلاغة عبر مزاحمة مجالات لسانية أخرى، وعلينا توخّي الحذر من هذا الانفتاح الذي قد يضيّع هوية البلاغة أو يزاحمها، فمراجعة ذاكرة البلاغة يجعلنا أمام تهديد فعلي لهوية البلاغة عبر النحو واستثمار مقولات علم المعاني أو الصوت وهيمنة ذاكرة الفصاحة، أو النقد وهيمنة الذاكرة النقدية، قد يكون لك رأي آخر يا صديقي.

عماد عبد اللطيف

على مدار عقود طويلة خلال القرن العشرين وُصفت البلاغة العربيّة بأنها تتسم بالجزئية، وتكاد تقتصر في حركتها على نطاق الجملة والشاهد دون أن تتجاوزهما إلى النّص والخطاب. ويبدو هذا صحيحًا بالنّظر إلى كتب تعليم البلاغة العربيّة، لا سيما تلك التي تتكئ على شروح التلخيص. لكن الصّورة ستكون مختلفة لو أننا نظرنا في مجمل الإنجاز البلاغيّ العربيّ. فمن ناحية البُعد التّحليليّ فإنّني أظنُّ أنه يُمكن استخلاص قواعد شاملة للمقاربة البلاغيّة للخطاب استنادًا إلى تراكم البحث المذهل في شروح الشّعر العربيّ، وتفسير القرآن. أما من الناحية النّظريّة فإن البلاغة العربيّة هي بلاغة خطاب، وليست بلاغة جملة، وقد يبدو هذا القول صادمًا، لكنه من وجهة نظري صحيح. وأدلته حاسمة متنوعة. فمفهوم البلاغة ومفهوم علم البلاغة لدى مدرسة التلخيص يتمحور حول الخطاب، لا الجملة. وحين نتأمّلُ سريعًا التّعريفَ

الأشهر للبلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، نكتشف أن الحديث عن أن البلاغة العربيّة بلاغةُ جملةٍ لا خطاب يبدو بعيدًا عن الصواب. فالتّعريف السابق يقرن البلاغة بالكلام المُتداول في سياق مُحدد، ويجعل البلاغة كامنة في تحقيق شرطين: التوافق بين الكلام والسّياق، وفصاحة المفردات المكونة لهذا الكلام. وسواء أخذنا مفهوم الخطاب بدلالته التّراثية التي تشير إلى موقف تخاطُبي في سياق معلوم، أو المفهوم الحديث له بوصفه الكلام في حال استعماله في سياق طبيعي، فإن الخطاب، وفقًا للتعريف السابق، هو موضوع البلاغة.

من ناحية أخرى، حين ندقّق في مسائل علم المعاني والبيان والبديع نجد أنّها لا تتعلقُّ بالجملة حصرًا، بل بالكلام. وإذا كان البعض قد فهم من مبحث المسند والمسند إليه أن المقصود هو ركنا الجملة (المبتدأ والخبر أو الفعل والفاعل) فإن هذا لا يعني أن البلاغة العربيّة تُعنى بالجملة فقط. فالمسند والمسند إليه قد يوجدان فيما يتجاوز الجملة، وفي الحقيقة فإن هذا هو الحال في كثير من الكلام. كما أن مبحثًا مثل الإيجاز والمساواة والإطناب، وهو أحد أهم أبواب البلاغة السكاكية، يتحرك في إطار الجملة، والنّص، والخطاب. أليس استشهادهم بالأحداث المحذوفة في قصة يوسف، في باب الحذف، تجليًا للعناية بالخطاب؟!

أما فيما يتّصل بالعلاقات المعرفيّة بين البلاغة وعلوم اللغة فإنّني أنظر إليها على أنها علاقات تكامل لا مزاحمة. أعرف جيدًا قلق كثير من الباحثين على «حدود» تخصصاتهم، وحرصهم على بقائها «نقية». لكنّ هذا القلق يكشف عن تصوّر ضيق للمعارف وعلاقاتها. إن أحد أكثر الدّروس أهمّية

للباحثين في كلّ زمان هو أن أكثر المساهمات العلميّة أهمية تأتي لهؤلاء الذين يضعون أرجلهم في أكثر من حقل معرفيّ. ويكاد تطور الحقول المعرفيّة في زمننا الراهن يكون نتاجًا مباشرًا لاستكشاف نقاط التقاطع بين علم ما وعلوم أخرى قريبة منه. وإذا نظرت إلى علم اللسانيات نفسه، فإنك ستجد أنه يتشكلّ من علوم فرعية، يربط كلّ منها بين اللسانيات العامة وعلم آخر، مثل الاجتماع (اللسانيات الاجتماعية)، النفس (اللسانيات النفسية)، علوم الحاسب (اللسانيات الحاسوبية)، السياسة (اللسانيات السياسية)... وهلم جرا. وفي الحقيقة فإنه من الضّروري أن تكون هناك علاقات وثيقة بين الحقول المعرفيّة.

من ناحية أخرى نحتاج إلى استرجاع حقيقة أن العلوم لا تتمايز بمادة دراستها فحسب. فليس الاهتمام بالجملة أو الخطاب هو الذي يُحدد، وحده، خصوصية حقل معرفي. والدليل على هذا أن كلّا منهما موضوع للبحث في علوم متنوعة، مثل المنطق والسيميائية علاوة على النحو والتّداولية وغيرها. فما يُحدد خصوصية حقل معرفية تفرده بسؤال بحثي خاص به، ووظيفة محددة يسعى إلى إنجازها، تُطبق على مادة دراسة قد يختص بها في أحوال قليلة، لكنه يتشاركها مع علوم أخرى في معظم الأحوال.

صلاح حاوي

ثمّة عناوين في دراسات متعدّدة تتصدرها مفردة بلاغة مثل بلاغة السرد أو بلاغة الموت أو بلاغة النور، هي بحد ذاتها استعمالات مجازية، يُنظرُ لها من خلال رؤيتين الأولى التي تعتقد بأنّ هذه العناوين تؤدّي دوراً في إثراء

الدرس البلاغي، والرؤية الثانية ترى أن هذا الاستعمال لا يخضع لضوابط البلاغة وتحديداتها الاصطلاحية، أي أنّ استعمال مصطلح البلاغة ـ متصدّراً ـ فيه شيءٌ من عدم الانضباط.

عماد عبد اللطيف

الظواهر التي يمكن تُدرس بلاغيًا لا حصر لها. وتتسع لتشمل كلّ أشكال التواصل الإنساني التي تهدف إلى إنجاز إقناع أو تأثير أو جمال. لذا فمن الطبيعي أن تُدرَس بلاغة الخطابات المتصلة بالسرد والموت والنور. وحين نضيف كلّمة ما إلى مفردة (بلاغة) فإننا نشير إلى ما يتصل بهذا الشيء من ظواهر تنجز الإقناع أو التأثير أو الجمال. فعلى سبيل المثال، حين نقول بلاغة الموت، فإننا لا نشير ـ غالبًا ـ إلى الموت بوصفه هو ذاته علامة تُنجز إقناعًا وتأثيرًا، على الرغم من أن هذا المعنى قد يكون في بعض الأحوال النادرة مقصودًا. لكننا نقصد غالبًا الأبعاد البلاغيّة للخطابات اللغويّة وغير اللغويّة التي تجعل من الموت موضوعًا لها، مثل أشعار الرثاء، وخطب ترقيق القلوب المتصلة بالموت، وصور الموت، وغيرها.

صلاح حاوي

قد نحتاج إلى تنسيق مشرقي ـ مغربي لبناء معجم بلاغي عربي شامل، يجمع بين المصطلح التّراثي والحديث والمعاصر، فهناك مجموعة كبيرة من الدراسات الاكاديمية التي اعتنت بالمصطلح، لكنّ عنايتها تدور في إطار محدّد وتمثّل مرحلة زمنية أو جهد فردي، وهذا لا يمكّننا من فهم مراحل تطوّر الفكر البلاغي العربي من التأسيس الى الراهن.

عماد عبد اللطيف

البلاغة العربيّة تحتاج بالفعل إلى معجم معاصر يسد فجوة قائمة في المعاجم الراهنة. فعلى الرغم من تعدد هذه المعاجم فإنها تعاني من مشكلّات جذرية مثل كونها أحادية اللغة، وكونها لا تشتمل على المصطلحات الجديدة التي ظهرت بفضل التطور الهائل للدراسات البلاغيّة في العالم المعاصر خلال العقود الأخيرة. علاوة على أن معظم هذه المعاجم أشبه بتجميع للجذاذات التي تتضمن المصطلحات البلاغيّة في التّراث القديم، وتبويب لها، دون غربلة وفحص دقيق.

يتضمن سؤالك المهم إشارة ضمنية إلى حقيقة مقلقة هي وجود تباين في المصطلح البلاغي لدى البلاغيين العرب، خاصة في المصطلحات المترجمة عن الغرب، قديمًا وحديثًا. ويُعد هذا التباين سببًا من أسباب الاضطراب الاصطلاحي الذي نعاني بشدة من تبعاته، إلى حد أنك تقرأ ترجمتين لعمل واحد فتظن أنهما يترجمان نصين مختلفين وليس نصًا واحدًا. ولا يُرد هذا دائمًا إلى التباين المشرقي الغربي في الترجمات، بل إلى طبيعة فهم المصطلحات البلاغيّة الغربيّة، والتمكن منها. ويكفي للتدليل على ذلك النّظر فحسب إلى ترجمتي كتاب بارت عن البلاغة القديمة للوقوف على «المأساة» التي نعانيها في المصطلح البلاغي.

يمكن التخلص من بعض مسببات هذا التباين في المصطلحات بواسطة تأليف معجم ثلاثي اللغة، يوازن بين المقابلات المتاحة، ويختار أفضلها. لكن هناك مسببات أخرى ستظلُّ قائمةً بسبب ارتباطها بالتّصوّرات المعرفيّة في العالم العربيّ. لنعترف أن هناك بُعداً ذاتيّاً في فهمنا للمصطلح البلاغي. وعلى الرُّغم من أن المعرفة تتطوّر بالفعل من خلال تطوّر مفاهيم مصطلحاتها،

وأنّ بعض المصطلحات قد يتنوّع مفهومُها بحسب الطريقة التي يفهمها بها الباحثون والمترجمون؛ فإن ذلك لا يجب أن يكون مطية لأن يتفرد كلّ باحث بمفهوم خاص للمصطلحات البلاغيّة. فالمصطلحات بالأساس هي تسميات «تعارفت» عليها جماعة الباحثين، وحظيت، من ثمَّ، باتفاقهم عليها وعلى مفاهيمها، بهدف تيسير التواصل العلمي فيما بينهم. وليس من المعقول أن يظن الباحثون أن حرية البحث العلمي تتيح لهم دون مسوغ تسمية المفاهيم بغير ما عُرفت به، أو إطلاق المصطلحات على غير المفاهيم المرتبطة بها. وللأسف، هذا هو الواقع الراهن، وهذا سبب رئيس لفوضى الاصطلاح البلاغي. وللتخلص من هذا الواقع نحتاج إلى إقناع الشطر الأكبر من الباحثين بأهمية تغليب معيار التوافق على معيار الذاتية فيما يتعلق بعملية الاصطلاح، التي تتأسس على التوافق لا الذاتية. والقاموس ثلاثي اللغة يمكنه أن يمثل في هذه الحالة مرجعية مهمة للباحثين، في الطريق نحو الضبط الاصطلاحي، ولعل مساهمة باحثين مشارقة ومغاربة في إعداد مادة هذا المعجم يكون مفيدًا كما ذكرتم في سؤالكم. فعلى الرغم من وجود قليل من التباين الاصطلاحي سببه شيوع ترجمات بعينها في إقليم بعينه، فإن هذه التباينات تظل محدودة، ويمكن إلى حد كبير التغلب عليها، بتضافر جهود المشارقة والمغاربة.

صلاح حاوي

البلاغة ـ على ما يبدو ـ ماتزال في منطقة منعزلة لابدّ لها من فك القيد والمشاركة في بناء الثقافة العربيّة. فمتى يكون للبلاغة شأن في بناء الفكر العربيّ إنْ كانت أو مازلتْ حبيسة الاقناع والجمال على الخطابات المقدّسة أو النخبوية وعدم توجيهها للمساهمة في بناء منظومة الفكر؟

عماد عبد اللطيف

تعيش المجتمعات العربيّة صراعًا من أجل التحديث منذ قرنين من الزمان. وقد كانت البلاغة منذ أواخر القرن التاسع عشر حتّى منتصف القرن العشرين في القلب من هذا الصراع. ولعل من الدال أن الإمام محمد عبده كان أول من أعاد النّظر في تدريس علم البلاغة، وفي أهدافه، وغاياته، اتساقًا مع مشروعه التنويري الذي راهن على تحديث الفكر العربيّ بوصفه سبيلا لتحديث المجتمع العربيّ. كما أن معظم مشاريع تجديد البلاغة العربيّة ارتبطت بقوة بمشاريع النهضة العربيّة، وقد عالجتُ هذه المسألة في كتاب (البلاغة العربيّة الجديدة: مسارات ومقاربات)، متخذا من أعمال الشيخ أمين الخولي مثالا. لكن العقود الأخيرة شهدت بالفعل فصلا بين علم البلاغة وتطورات المجتمع، ربما بسبب عزل الجامعات عن الحياة إلى حد كبير. ونحتاج إلى فهم أسباب ذلك، وفحص سبل تغييره.

ربّما يرجع نزوع معلمي البلاغة إلى عزلها عن مجتمعها إلى التعامل مع البلاغة العربيّة على أنها منجز تراثي بالأساس. ولأننا ندرس كتب البلاغة بمعزل عن العوامل الاجتماعية والسياسية التي أثرت في تطورها غالبًا، تبدو البلاغة منزوعة السّياق. وكأن أعمال السكاكي، مثلا، يمكنها التحرك في فضاء لا زمني ولا تاريخي. إننا ندرس (تاريخ) البلاغة، لا البلاغة نفسها. وندرس بلاغة الماضي لا الحاضر. ومع ذلك، فإن العقدين الماضيين شهدا تغيرات جذرية في اتجاه الاعتراف بالخصيصة الملازمة بحق للبلاغة، أعني أنها آنية؛ أي مرتبطة دومًا بسياق محدد. وقد حاولتُ ـ بشكلّ شخصي ـ استعادة هذه الصلة الوثيقة بين البلاغة والحياة، موليًا اهتمامًا متواصلا لخطابات الحياة اليومية، وللعلامات غير اللغويّة. ولعل التراكم الحادث في الدراسات الراهنة يفتح الآفاق أمام إسهام أكبر للبلاغة في الحياة العربيّة.